النظم العسكرية في صدر الإسلام والدولة الأموية

الدكتور: غازي الشمري*

الملك بناء أساسه الجند، فإن قوي الأساس دام البناء وإن ضعف الأساس سقط البناء. لا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل)([1]).

إن هذه المقولة الجامعة تدلل على ما لنظام الجندية أو الجيوش من أهمية ليس فقط في نشوء الدول بل وأيضا في حياتها. ذلك أن أعمار الدول معلقة إلى حد ما بتنظيم جيوشها؛ فإذا ما كمل هذا النظام واستقر على أسس مضبوطة وتراتيب محكمة كان ذلك نسيئة في أعمارها، وإذا ما كان هذا النظام على خلاف ذلك، لم تنفعها لا كثرة المال ولا بحبوحة العمارة ولا نعيم العدالة.

وإذا ما نظرنا في تاريخ البشرية في ما قام فيها من عظام الدول لم تجدها قامت إلا على عواتق الجيوش والجحافل المنظمة الترتيب والتدبير والشرائع، وعلى مثل هذا كان قيام الدولة الإسلامية في مرحلة النبوة والدولة الأموية.

إن معرفة طبيعة تنظيم الجيوش الإسلامية في تلك العهود هي من أهم السبل المؤدية إلى معرفة مكامن قوتها التي جعلتها تكتسح في فترة قصيرة الجحافل العتيدة للجيوش إمبراطوريتي فارس والروم.

ثم إن معرفة طبائعها تساعدنا على معرفة أوجه التطور التي لحقتها في خضم ذلك كله، باعتبار طبيعة عدوها وأحواله وأوصافه، ثم إن معرفة ذلك أيضا يهمّنا في معرفة السبل والطرائق التي استحدثها أولئك القادة الأفذاذ الذين بهم تمت تلك الفتوح العظيمة في تلك الفترات المباركة، وسوف نحاول بيان كيف كانت نشأة هذا الجيش وكيف كانت طبيعة تنظيمه من إدارة وشؤون داخلية ومن عدته القتالية الفردية والجماعية، ومن حيث

---

* أستاذ محاضر بقسم التاريخ جامعة وهران.

ترتيب صنوفه وتشكيلاته الحربية، وكيف كانت تدابيره القتالية أثناء المعارك. وما هي الشرائع والآداب التي سار عليها وهل أصابها من تبديل أومن تغيير؟

لقد عرف العرب عبر عصورهم الجاهلية نظم القتال معرفة الممارس الخبير، فقد علمتهم حروبهم القبلية كيف يكونون رغم قلة تنظيمهم فرسانا من أمهر الراكبين وشجعانا من أشد الضاربين، وقد بلغوا من الثقافة الحربية في بعض عصورهم كما في دول اليمن والغسانية والمناذرية درجة متقدمة عرفوا فيها نظام الكتائب في جيوشهم حتى عرف للمناذرة كتيبتين دعيتا ب(الشهباء) و(الدوسر)([2]).

ولما جاء الإسلام اصطبغت جيوشه بنفس تلك الصبغة القبلية القديمة، فضلا على ما أدخله الخلفاء والأمراء على هذا الجيش من تنظيم في مختلف جوانبه، في حين تغير جوهر وروح هذا الجيش (العقيدة القتالية)؛ فقد أصبح فرض الجهاد والدفاع عن الدين ونشر الرسالة المحمدية نقطة البدء لإعمال الفكر في إقامة نظم عسكرية دفاعية وهجومية للمسلمين([3]) لمقابلة القوة العدوة الداخلية كقريش وأحلافها واليهود والخارجية من فارسية وبيزنطية.

لقد بدأ الجيش الإسلامي صغيرا –كانوا في أول معركة 374 مقاتلا– متألّفا من المهاجرين والأنصار قاعدته المدينة الآمنة بعد جلاء اليهود. كان هذا الجيش ضعيفا مستضعفا قليل العدة والعدد قليل المركب قليل السلاح، لكنه استطاع بفضل الله عز وجل ثم بفضل رجاله من أن يحرز الانتصارات المتتابعة بجيش كله من المتطوعة الذين لبوا نداء نصرة الدين وإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، بقيادة راشدة حكيمة كان عليها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وتعاقب عليها بعده خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم الذين استطاعوا تدويخ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا ينسى فضلهم ولا يغتفر أجرهم.

أخذ هذا الجيش الإسلامي يزداد تنظيمه شيئا فشيئا، يزداد بازدياد عدده وحاجته وتوسعه في الأرض، على أنه حافظ على ميزته الأساسية وهي تقسيمه القبلي الذي سيسير معه طيلة عهدي صدر الإسلام والفترة الأموية.

لقد ظهر هذا الطابع في تقسيمه أجناده في الأمصار المفتوحة كل جند في محطته، كانت تلك المحطات تنقسم باعتبار القبائل والبطون؛ فكانت محطة البصرة على خمسة أقسام هي منازل القبائل العربية الخمس؛ الأزد، تميم، بكر،عبد القيس، وأهل العالية، وعلى كل خمس منها أمير من أمراء تلك القبائل([4]).

وكانت حركة هذه القبائل ورجالها داخل هذه الجيوش، حركة عفوية ملبية لنداء الجهاد وفضل الغنائم، لكن سرعان ما تحول هذا التنظيم في طبيعة هذا الجند ومقصده، فقد شعر عمر بن الخطاب بعد استقرار الفتوح ميل هؤلاء المقاتلة إلى زراعة الأراضي لكفاية أرزاق أهاليهم، فحاف أن يكون ذلك مبدأ فتور روحهم العسكرية، وأن يرتبطوا بالأرض فتقل قابليتهم للحركة والنفير، فلأجل هذا في ما ذكره بعض المؤرخين (حرّم) عليهم مزاولة الحرف وعوّضهم عن ذلك بإنشاء العطاء يدفع من بيت المال لهم ولعيالهم ما داموا في الجهاد ولأجل ذلك أنشئ ديوان الجند سنة15 هـ/ 636م([5])؛ فكان ذلك أول ظهور للتنظيم العسكري.

وقد ترتب على ذلك أن أصبح الجيش الإسلامي منقسما إلى صنفين من الجند:

أ- المرتزقة؛ وهم الذين اتخذوا الجندية مهنة دائمة، وعوضوا في ذلك بالعطاء المفروض لهم من بيت المال، ثم عرفوا من بعد بأصحاب الديوان.

ب- المتطوّعة؛ وهم الخارجون عن الديوان ممن يلبي النفير فيشترك وقت الحرب ويسرّح زمن السلم.

اقتبس الراشدون السياسة العسكرية النبوية إلاّ أنهم أضافوا لها من التطويرات والإحداثات ما يتناسب وعصرهم، الذي تطلب من القوة البشرية والمادية التخطيط والتنظيم العسكري المتجدد والمتلائم والظروف والميادين التي حارب فيها المسلمون خاصة في مرحلة الفتوح الإسلامية، وقد برز التنظيم العمري أكثر من غيره لطول مدته وكثرة حاجته.

لم يكن تجنيد المرتزقة إلزاميا في العهود الأولى على أنه أيضا لم يكن طوعيا تماما؛ فلم يكن السلم القادر على الجهاد إذا ما سمع نداء النفير ليتخلف عنه وإلاّ حمل عاره طوال حياته، ونال من التعيير ما كان أفضح منه، ولهذا يمكن القول أن التجنيد في هذا العهد (شبه إلزامي)، يقول محمد الدرة: "فكان تأليف الجيش مزيجا من التطوع

والتجنيد الإلزامي الذي يفرضه الدين للجهاد في سبيله، وهو أرقى ما وصل إليه نظام الجندية في شتى عصوره"([6]).

لقد تضاعف عدد هذا الجند تضاعفا مطردا في المرحلة الراشدية، فبلغ في فترة حروب الردة نحو عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وازداد أكثر أثناء الفتوح فكان عدد الجيش العراقي 18 ألف مقاتل وعدد الجيش الشامي 27 ألف مقاتل.

وقد بلغ في الجملة عدد المكتتبين في ديوان الجند زمن عمر بن الخطاب 150 ألف مقاتل([7]).

وتضاعف هذا العدد زمن الدولة الأموية بسبب الفتوحات، على أنه يعسر ضبط ذلك في هذا العهد لما اتسم به ديوان الجند من التكتم عليه. وعرفت مراحل الفتن تقلص هذا العدد لتحرج الكثير من المسلمين القتال فيها، وقد اضطر ملوك بني أمية والأمراء الأخذ بالتجنيد الإجباري وكان أول من تقحم فيه على ما قيل الحجاج بن يوسف زمن عبد الملك بن مروان.

والظاهر أنه سبقه إلزام عمر بن الخطاب حيث ورد في إحدى رسائله إلى عماله قوله: (ولا تدعوا في ربيعة و مضر ولا حلفائهما أحدا من أهل النجدة ولا فارسا إلا جلبتموه فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه)([8]).

وفي الدولة الأموية أخذ الجيش الإسلامي ينسلخ عن صبغته القبلية المحضة، إذ استعانوا بعد اتساع الفتوح في المغرب بالبربر في جيوشهم.

فأما الأعاجم لم يعرف دخولهم في الجيش إلا نادرا من قبيل بعض الأتراك، وقد انقضت الدولة الأموية ولم يتخلل صفوف الجيش أعجمي إلاّ ما كان من الأتباع والخدم.

وسيدخلون في العصر العباسي ويصبحون يؤلفون زمن المنصور فرقته الرابعة، بعد اليمنية والمضرية والربيعية([9]). ومن المهم أن يلاحظ أن الأمويين قد اهتموا اهتماما كبيرا بالجيش وحافظوا على البناء التنظيمي العمري وزادوا فيه كالتجنيد الإجباري والزيادة في الأعطيات وتنظيمها لما كان على الجيش الأموي من مواجهته أخطار الثورات الداخلية والحركات المناوئة فضلا عن حماية أطراف الدولة وثغورها.

لقد استطاعت هذه الجيوش أن تحقق الانتصارات الحربية في مواقع القادسية واليرموك وغيرها رغم قلة عددها في مقابل عدوها. وذلك بفضل تنظيمها أولا ثم المقدرة الحربية للجندي العربي في تلك الأيام.

لقد كان تركيز الجيش قائما على تدريب الجنود لا على عددهم مما جعله يتمتع بمميزات قتالية لم يشاركه فيها أي جندي آخر في تلك الأوقات.

ثم إنه لم يكن الرجل ليقبل في الجيش حتى يستوفي شروطه من: بلوغ، وذكورة وإسلام وسلامة من الأمراض، وإن كان قد أجازوا اشتراك الأعرج والأبكم والأصم، وقد أوصى أبو بكر الصديق بعدم القتال بالجريح فهو كما قال (بعضه ليس منه)([10])، والإقدام ثم الحرية وقد اختلفوا فيها فذهب البعض إلى نفي اشتراك العبيد في العهود الأولى وأن السماح لهم إنما جاء في أواسط العصر العباسي، وذهب آخرون إلى أن هذا الشرط لا وجود له وهو الصحيح وتعضده الأخبار([11]).

ولقد كان الجندي العربي فضلا على سجاياه الفطرية قد اكتسب ميزات قتالية في هذه المرحلة كان أهمها:

1/ القوة؛ وهي مكتسبة من بيئته الطبيعية والاجتماعية، مأخوذة من البداوة التي أعطته سمة القساوة، ونعرة القبيلة أعانتهم على الحميّة. وزاد كل هذا الإسلام وأربى عليه بقوة إيمانية تزيل الجبال، حبّا في الشهادة لا تهورا وخلاصا من العذاب.

2/ كمال التدريب؛ ففضلا على ما كانوا اكتسبوه في جاهليتهم من فروسية وقتال ومعرفة بفنون الغارة والصيد؛ فقد عرفوا في زمن الإسلام ذلك أيضا أكثر تنظيما وأكثر اهتماما حتى كانوا كما يقول أحد التابعين يعلمون أبناءهم الغزوات كما يعلمونهم الآية من القرآن، وحتى أنهم بلغوا من الاهتبال بالرمي –لحث النبي صلى الله عليه وآله وسلم– أن أصبح الواحد منهم قادرا على إصابة عين أحد رجال العدو عن بعد خمسين ذراعا فدعوا لهذا ب"رماة الحدق"([12]).

3/ الشجاعة؛ وكانت هذه الصفة من سجايا الجاهلية وزادها الإسلام قوة بما أسبغه على الشهادة في سبيل الله من نعيم لا يوصف حتى صاروا يتبارون فيها؛ فركزت أنفسهم وأثمرت رجالا أفدادا.

4/ الاندفاع والمؤانسة؛ فليس من الغريب أن يكون حامل الرسالة المحمدية المتعلق بها بكل جوارحه تهون عليه الآلام والضّراب في سبيلها، وأن يندفع فيها اندفاع من لا يخشى الموت، دون أن يكون في ذلك مضرة على أخيه بل يفتديه بروحه، وخبر الأربعة المسقون ماء في معركة اليرموك أعظم أمثلة مؤانسة الإخوان إذا صدقوا.

5/ خفة الحركة؛ فلما كان يقينهم من أنّ ما كان ما أصابهم ليخطئهم أيقنوا بالتوكل فاتخذوه عدة؛ فلم يكثروا من حمل الدروع وثقيل السلاح، لذا كانوا فضلا على خفتهم الجسدية من أسرع الجنود تحركا وانتقالا.

6/ جميل الطاعة والانضباط؛ فكانوا على درجة كبيرة من الانضباط، وحب النظام، والطاعة لأولي الأمر منهم خلفاء وأمراء جيوش، وقد حضّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك كثيرا حتى عدّ طاعة الأمير من طاعة الله تعالى([13]).

لم يكن قادة الجيوش الإسلامية، ومن ورائهم أمراؤهم وخلفاؤهم يجهلون أهمية الشؤون الإدارية المنظمة في ميدان ضبط الجيوش، وفضلها في كسب الحروب؛ ولهذا نلمس بصماتهم فيها بوضوح عبر مراحل التاريخ الإسلامي في عصري صدر الإسلام وفترة الأموية، ويمكننا أن نتتبع ذلك في مستويات هي:

أ/ مستوى الديوان: قد قدمنا السبب الذي اضطر عمر بن الخطاب إلى إنشاء الديوان، لكن الحقيقة أن إنشاء الديوان لضبط المقاتلة يعود إلى عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وهذا ما رجحه الخزاعي الذي بيّن خواص ديوان عمر بن الخطاب([14]).

لقد ارتبط نشوء هذا الديوان ب"تسجيل أسماء الجنود" أو ما عرف ب"الاكتتاب"، وقد كان هذا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلّم. روى أهل الحديث عن أحد الصحابة قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلّم: إنّي اكتتبت في غزوة كذا وكذا وإن امرأتي خرجت إلى الحج؛ فقال له: انطلق فحجّ مع امرأتك ([15]). إذن نؤكد أن الاكتتاب (التسجيل) للجهاد ظهر في عهده عليه الصلاة والسلام ثم تطور واشتهر في عهد عمر بن الخطاب.

ثم ازدادت الحاجة إلى الديوان لمواجهة الزيادة التي طرأت على عدد الجنود، وضرورة إحصائهم،وترتيب أمورهم، وتوفير أعطياتهم؛ فنشأ ديوان الجيش هذا عربيا وتطور بمرور العهود. و قد ذكر الماوردي أن هذا الديوان مختص بالجيش من إثبات و عطاء و ذكر أن اثباث الرجال فيه يعتبر بعدة شروط عددها في كتابه ([16]).

2. مستوى الأعطيات: لم يكن المسلمون في أول الإسلام ليكترثوا بالمال يعينهم على الغزو بل كان المقتدرون منهم ينفقون على الجيش الإسلامي من خالص أموالهم، ويواسون ممن لا مال لهم ولم يكن لهم من مغازيهم إلا ما افترضه الله عز وجل لهم من أربعة أخماس الغنيمة، وبقي الأمر على حاله زمن أبي بكر إلا انه اخذ في تنفيل أهل البلاء في الحرب من بيت المال؛ فلما جاء عمر بن الخطاب و خاف انشغال المقاتلة بالزرع و التجارة قطع

لهم عطاء مقررا من بيت المال بعد أن يثبتهم في ديوان الجند كما حدد لهم اقواتا فجعل لكل مسلم ومن يعوله جريبين من الحبوب . وجعل هذا العطاء متفاوتا يختلف بحسب درجة القرابة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم و الأسبقية في الهجرة و الجهاد؛ فكان أقصى ذلك خمسة آلاف درهم سنويا للعباس عمّ الرسول صلىّ الله عليه وآله وسلم، ولأهل بدر والحسن والحسين، وفرض لأمراء الجيوش وقادتها بين سبعة آلاف وثمانية آلاف درهم سنويا. و في خلافة الإمام علي بن أبي طالب ساوى بين الجند في الأعطيات . ولما جاء معاوية ابن أبي سفيان زاد في أعطيات الجند لكسب ودّهم وتثبيت شرعيته في السلطة؛ فبلغ لها ألف درهم كما زاد لأهل البلاء في الحرب و اختلفت الأعطيات زيادة ونقصا بعد إلى أن بلغت أواخر الدولة الأموية 500 درهم سنويا [17]

3.مستوى الإطعام: يبدو أن طعام الجند في أول الإسلام كان من قبل أنفسهم، يحمل كل مقاتل زاده، وكانوا أحيانا كثيرة يقومون بالطهي الجماعي بأنفسهم هذا ما دلّت عليه إخبار السيرة والمغازي وهي كثيرة [18] كما كانوا يأخذون ما يغنمون من الطعام فيأكلونه ولا تشترط فيه القسمة مع المغانم. ويدل هذا على انه لم يكن هناك إمداد لهذه الجيوش يأتي من قاعدة الخلافة وذلك في أول الإسلام والعهد الراشدي، بل عكس ذلك فقد كانت الجيوش الإسلامية الفاتحة تمول المدينة بالطعام زمن الضيق كما حدث سنة 21هـ/ 641 م حينما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستمده من طعام ناحيته[19].

4. مستوى الإسكان: كان الجند في الصدر الأول يقطع مسافات طويلة دون أن يجد مكانا للراحة على الطريق وكانوا يعانون في ذلك بلاءا شديدا كما في غزوة ذات الرقاع[20]. و في زمن عمر بن الخطاب تم بناء معسكرات استراحة على أطراف الطرق الصحراوية؛ كما سنّوا في افتتاح المدن الصلحية أن يضيفهم أهلها ثلاثة أيام و كانوا أيضا ينزلون بيوت أعدائهم الذين خلفوها، أو ينصبون الخيام خارج المدينة إلى حين بناء معسكرات دائمة ولقد كانت هذه المعسكرات الدائمة المقامة على مقربة من المدن تضم:

1.ثكنات لإسكان الجند وهي " مراكز الأجناد على راياتهم و مجتمعهم على لواء صاحبهم وعلمهم"([21]).

2. حمى لربط الخيل.

3. مستودعات لحفظ السلاح و العدة

4. سجل ديوان لضبط أسماء الجند وعددهم و أعطياتهم.

5. مستوى الألبسة: كان للجندي الإسلامي فيما يبدو لباسا يتخذه للحرب و القتال على انه لم يكن فيه ما يميزه بشيء، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يتخذ لباسا مخصوصا لحربه عبارة عن حلّة مزررة بالديباج.

وبقي الأمر كذلك إلى زمن الدولة الأموية حيث بدأ توحيد لباس الجند، ويبدو أنهم اتخذوا اللون الأبيض شعارا لهم؛ فكان الجندي يلبس عمامة و سراويل يعلوه قباء يتدلى إلى ما تحت الركبة بقليل مع حذاء، كما يبدو أن قادة الجيش قد ارتدوا أزياء تميزهم عن الجند، و الظاهر أن أقبيتهم كانت أطول من أقبية الجند مزدانة بصف من الأزرار المتقاربة يشدّون أواسطهم أحيانا بحزام من حرير.

6. مستوى استعراض الجند: كان استعراض الجند أو المقاتلة معمولا به مند الجاهلية يستعرض رؤساء القبائل رجالهم قبل السير أو المعركة وكذا فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في معسكره بموقع الشيخين في طريقه أحيانا إلى أحد سنة 3هـ، و لا شك أن الخلفاء من بعد قد تابعوه على ذلك و اهتم الأمويون بهذا الأمر اهتماما ملحوظا من قبل الحجاج بن يوسف الذي كان يستعرض جنده سائلا إياهم رجلا رجلا عن أحوالهم وقبائلهم و سلاحهم ودوابهم وبلغ الاهتمام بهذا الجانب ذروته في الدولة العباسية حيث أنشأ له ديوان العرض الخاص به (22).

7. مستوى الرايات تعتبر الراية من أقدم شعارات القبائل و الجيوش اتخذت مند القديم طابع الرموز الخاصة بأصحابها عائدة إلى أمجاد أو خرافات أو انتصارات أو تحالفات، واتخذت أشكالا وألوانا متعددة، وقد عرف المسلمون منذ العهد النبوي اتخاذ الرايات و الأولوية . وكانت الراية عندهم أكبر من اللواء بحيث يعقد اللواء لأمير القبيلة، و الراية لقائد الجيش لقد كان من تقاليد العرب القديمة الباقية إلى عهود متأخرة أن ترفع كل قبيلة لواءها على رأس رمح عادة فإذا اجتمعت عدة قبائل اختصت إحداها بشرف حمل الراية، وقد كانت قريش تحمل رايتها السوداء " العقاب" ولقد تعددت ألوان الأولوية لكنها لم تتجاوز الأحمر والأسود والأصفر والأبيض وقد كان علم مملكة سبأ أصفرا عليه رسم سيف.

واتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلّم راية سوداء وألوية بيضاء على الأغلب. و قد اختلف في وصف رايته فقيل سوداء مربعة من نمرة (23) و قيل كانت صفراء(24)، وأحيانا كان يسير الجيش النبوي بلواء واحد دون وجود راية كما فعل في غزوة بني قينقاع(25)، وأحيانا كانت القبائل تغيّر رايتها كما حدث لبني سليم كان لواؤهم

أبيضا قاتلوا به يوم حنين حتى احمرّ من الدّم فأقرّوه على ذلك ([26]). وحافظ الخلفاء على تلك الرّايات وزادوا كتابة الشهادة عليها . وقيل أن الشّهادة كانت ثابتة منذ العهد النبوي وكانوا إذا خرج عقدوا له الألوية لكل قائد لواء قبيلة، وقد ذكر ابن عائد في كتاب الصوائف أوصاف رايات القبائل العربية؛ فذكر أن راية بني السكون كانت مربعة ذات طرفين حمراوين وثلاث عذبات بيضاوين وحمراء إلى الوسط، وكانت راية بني قتيبة بيضاء فيها أسد أسود وعذبة سوداء وعدد تلك الرايات وأوصافها حتى بلغ بها قريبا من سبعين راية[27]. وفي الدولة الأموية اتخذت لنفسها البياض شعارا فكانت راياتها بيضاء، وأخذت الشكل المستطيل وزيد فيها تطريز رسم الخليفة من جهة و الشهادتان من الجهة الأخرى، وكثرت في أزمنتهم الألوية وكان أهمها لواء القيسية الأحمر ولواء اليمانية الأبيض.

8. مستوى الشعارات: اتخذ العرب فضلا على الألوان كشعار بعض الألفاظ في الحرب شعارا لهم وقد كان شعار الأحزاب يوم احد "يا للعزى يا لهبل"[28]، وكان شعار المهاجرين "يا بني عبد الرحمن" و شعار الأوس" يا بني عبيد الله"وشعار الخزرج" يا بني عبيد الله" وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ لكل غزوة شعارا فكان شعار بدر "يا نصر الله اقترب اقترب" وشعار أحد "يا نصر الله اقترب" ويوم بني قينقاع" يا ربنا لا يغلبنك" يوم الطائف" يا رضوان" ويوم حنين "يا بني عبد الله" ويوم الأحزاب" حم لا ينصرون"[29] ...وتواصل الامر كذلك بعد النبوة فكان شعار أهل العراق يوم صفين "يا الله يا احد يا صمد يا رب محمد يا رحمن يا رحيم"[30] وشعار أهل الشام "نحن عباد الله حقا حقا يا لثارات عثمان"[31] و كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتخير بنفسه شعارات القبائل، وقد جعل شعار أزد شنوءة "يا مبرور"[32]، لقد كانت هذه الشعارات تستعمل في الحروب كصيحات هزيج تبثّ الحماس في قلوب المقاتلة، ولمّا ازدادت الجيوش الإسلامية من بعد وتقدم فن الحرب صارت تستعمل ككلمة سر للتعارف.

أما العدة في الجيش الإسلامي؛ فاقترنت حياة العربي قديما بالسلاح إمّا سيف و إمّا قوس أو رمح، وقد كان للسلاح عنده منزلة كبيرة وهم أهل الصيد والقنص والغزو والغارة وعرفوا في حروبهم الأسلحة الفردية كما عرفوا الأسلحة الجماعية التي ورثها المسلمون عنهم؛ فكانت عدتهم الرئيسية في حروبهم بعد على أنها عرفت شيئا من التطوير و التنويع اتباعا لحاجة الجيش الإسلامي وطبيعة الحروب التي خاضها الجندي العربي في صدر الإسلام وعهد الدولة الأموية إلى قسمين ويمكن تقسيمها إلى عدة فردية وعدة جماعية.

1. العدة الفردية للجندي:

أ. السيف: استعمل منها الجندي ثلاثة أنواع العتيقة و المولدة و غير المولدة فالعتيقة هي القديمة وتضم ثلاثة أجناس اليمانية و القلعية نسبة إلى موضع القلعة بالبادية و الهندية وكانت المولدة لا تماثل العتيقة جودة وهي خمس أجناس الخراسانية و البصرية و الدمشقية و المصرية و البغدادية . و أما الثالثة فهي وسط بين السابقتين وهي ثلاث أنواع السليمانية و السرنديبية، والبيض ولشدة اهتبال العرب بها قديما وحديثا وجعلوا لها ما يقرب ألف اسم، وكانوا أولا يستوردونها من الأمم القديمة حتى كان أول من صنع سيفا عربية الهالك بن عمرو بن اسعد بن خزيمة[33]. وكان السيف عندهم أشرف الأسلحة البيضاء قال ابن هذيل الأندلسي في حلية الفرسان "كانت (يعني العرب) تطعن به كالرمح، وتضرب به كالعمود، وتقطع به كالسكين، وتجعله سوطا ومقرعة، وتتخذه جمالا في الملأ، وسراجا في الظلمة، وأنسا في الوحدة، وجليسا في الخلاء، وضجيعا للنائم، ورفيقا للسائر، وتسميه عطافا، ووشاحا، وعصا، ورداءا، وثوبا، وهو قاضي القتال، وفيصل الحكم بين الرجال، وبذلك كله وردت الأشعار وسارت الأمثال و الأخبار([34]).

ب. الدرع: وهو رداء يلبس في الحرب للتحرز من ضربات السيوف وطعنات الرماح و السهام، وهي إما أن تكون من صفائح من الصلب فتسمى "لأمة" أو تكون من زرد الحديد فتدعى "الزرد" أو من القماش الكتاني السميك أو الجلد فتدعى "دلاص"، وكانت هذه الدروع في العهد الإسلامي تضم عدة أقسام هي "الجوشن"، وهو ما وقى من الدرع الصدر، والظهر أو الصدر فقط "الخوذة"، وهي بيضة الحديد التي تحفظ الرأس يسمى مقدمها "القونس" ومؤخرها "الدائرة" "المغفر"، وهي الخوذة المصنوعة من الجلد في الأصل ثم أطلقت على الحلق التي تغطي الرقبة وجوانب الوجه وهي عادة متصلة بالجوشن أو الخوذة .

ولم يكن اهتمام المسلمين بالدروع كبيرا في أول الأمر إلى أن رأى الخلفاء الأمويون أهميتها فحثوا الدراعين على إنشاء مصانع ضخمة للدروع وعمّموا استعمالها في الجيوش([35]) . ولقد كثرت أسماؤها عندهم باختلاف صفاتها فمن ذلك الزعفة الفضفاضة الحصراء الشليل.

ج. الترس وتعرف بترس الغدر عند قدماء العرب وهي صفحة من الفولاذ تحمل في اليد للوقاية من ضربات السيوف و غيرها فإذا كانت من خشب مغطاة بالجلد دعيت جحفة أو درقة أو زراقة أو اللمط وقد تفنن العرب في صنعها واتخذت عندهم أشكالا مستطيلة ومسطحة ومقببة ومحفرة.

د. الرمح وهو عود من قصب أو خيزران بطول 3 إلى 10 أذرع وعلى رأسه حربة للطعن، وهو من أسلحة الفرسان في الغالب وللعرب منه أنواع مختلفة على حسب طوله ووزنه واستعماله؛ فمنه الخطل طويل القناة، المخموس من 5 أذرع، المربوع من 4 اذرع، الصبربر عريض السنان، النيزك، المزراق([36]).

هـ. القوس كانت عندهم أكنية من العود مغلقا أو مفتوحا، تصنع عامة من عود النبع او الشوحط أو الخشب المرن القوى، وقد عرفوا أنواعا منها لكنهم فضلوا العصفورية، والزغرية، والشريح. وهي تتألّف من ثلاثة أجزاء، القوس، والوتر، والسّهم، وعرفوا أنواعا منها تختلف حسب حجمها، ومنها القوس اليدوي وهو العربي ومنها القوس الانبوبي الذي اقتبس من الأعاجم زمن الدولة العباسية. وكانت للقوس عند العرب في الجاهلية والإسلام أهمية كبيرة في حروبهم ومتصيّدهم، وقد بلغ من مهارتهم في الرمي بها أن كان الواحد منهم قادرا على رمي إحدى عيني الغزال دون الأخرى على بعد يفوق المائة ذراع. ولقد أولى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم للقوس اهتماما خاصا؛ فكان يحضّ على صناعتها وتعلمها، ويرى أن القوة في الرمي وقد كانت أهم سلاح ساعدهم على غلبة الروم في معاركهم ضدها، إذ لم تكن الروم تحسن استعمالها و اهتم الخلفاء من بعد بها حتى أصبح صنف النّشابين في الجيش الإسلامي أقوى أصنافه.

و. آلات أخرى ومن الآلات الحربية الأخرى مما استعمله الجندي الإسلامي نذكر العمود، النبوت، القنبرة أو القنبلة، الطبر أو الطبرزين، الخطاف، المقلاع، الوهق، الجبتية وهي المدية ذات الحدين، الخنجر وهو السكين المعقوف، ويبدو أن أكثر هذه الأسلحة محدث في الأزمنة المتأخرة .

ب. العدة الجماعية للجيش الإسلامي:

استعانت الجيوش الإسلامية في صدر الإسلام وعهد الأموي بعدة حربية جماعية مختلفة عرفت بدورها تطورا واستخداما مضطردا وطبيعة الحروب التي خاضتها و منها:

المنجنيق: و هي آلة ثقيلة ثابتة و متحركة على عجلات، تستعمل لقذف الحجارة وغيرها، وهي من أوكد آلات الحصار. وقد عرفت الجيوش استخدامها على مختلف أنواعها، وهي منجنيق رمي الحجارة وقذف النفط والكرات النارية وقذف الأفاعي و العقارب ورمم الحيوان الميتة والقاذورات. وهي في الجملة على ثلاثة أنواع: المجانيق ذات الزيار، و المجانيق ذات الثقل المعاكس وهي قديمة، و المجانيق المقلاعية.

ولقد كان استعمال المجانيق قديما في العرب، كان أول من وضعها جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين الكندي[37]، ويذكر في السيرة النبوية أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة الطائفيان كانا بقرية جرش يتعلمان صنعة العرادات و المنجنيق و الدبابات، لما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم محاصرا للطائف[38]، ولقد استعملها المسلمون في مغازيهم وفتوحاتهم .وكان أول منجنيق وضع في السلام على ما قيل منجنيق سلمان الفارسي قام بصناعته في غزوة الخندق[39]، وقد نصّب النبي صلى الله عليه وسلم المنجنيق على حصن الطائف بمشورة سلمان أيضا[40]، ثم ازداد استعمالها في مرحلة الفتوح. وقد كان للجيش الإسلامي الفاتح للمدائن زمن عمر بن الخطاب نحو عشرين منجنيقا، كما نصبها أبو موسى الأشعري في حصار تستر، وعمرو بن العاص في حصار الإسكندرية، واهتم الأمويون بهذا السلاح اهتماما كبيرا واستعملوا الكبيرة منها حتى قيل أنّ الحجاج صنع منجنيقا اسماه العريس كان يحتاج الى 500 رجل لخدمته[41]، واستعملوه أيضا في غزو البحر فذكر سلمة بن الأكوع قال: ركبنا البحر زمن معاوية ولقينا العدو فرميناهم بالمحرقات[42]. وكان استعمالها يترافق و تكبيرات الجند وقراءة القرآن أثناء الرمي بها. وقد استحدثت بعد آلات تشبه المنجنيق منها قوس الزبار أو منجنيق السهام تعمل على مبدأ القسي ولها أنواع ولعلها متأخرة عن العهد الأموي .

الدبابة: وهي قديمة ترجع إلى العهد البابلي، وقد استعملها العرب في جاهليتهم عرفوها باسم "الضبر"، وهي تختلف شيئا ما عن الدبابة التي عرفوها في العهد الإسلامي، والتي كانت عبارة عن برج من الخشب الصلب مغلف باللبود و الجلود المنقوعة في الخل ومثبت على قاعدة خشبية لها عجلات، كانوا يتحصنون فيها من السهام و الحجارة ثم يتحركون إلى جدار الحصن لنقبه.

رأس الكبش: وهو عمود مستدير من الخشب يقارب طوله 10 امتار، يحمل في مقدمته رأسا من حديد أو غلاد معلقا بواسطة سلاسل قوية تجري على بكرة بسقف الدبابة أو البرج المخصص لحمله؛ فيدق به السور أو الباب لهدمه. وقد استعمل في أواخر العهد الأموي في غزوة منطقة الكيرج في آخر بلاد الهند .

برج وسلالم الحصار: تعرف بالزحافة وهي برج من خشب من عدة طوابق محمولة على ناقلة تدفع باتجاه السور المحاصر، منتهية بقنطرة للعبور، وقد عرفته العرب قديما، ويبدو أن أول من استعمله من المسلمين هو خالد بن الوليد في فتحه لمدينة دمشق.

النفط و النار اليونانية: هو مزيج من المواد الملتهبة كالاترج و الكبريت و النورة و السندروس و غيرها، يرمى بها لإحراق العدو في حصونه ومراكبه، ترمى إما بالنفاطة أو النشاب أو القوارير أو المنجنيق ...ومنه أنواع بعضها يصلح لحرق المراكب وأخرى تزداد اشتعالا إذا رش الماء عليها[43] .وكان هذا من اختراعات الأمم القديمة يتكتمون على صنعته إلى أن عرفته العرب بعد مدة وقيل انه كان من أهم أسباب فشلهم في فتح القسطنطينية لما حاصروها في العصور الأولى.

الحسك الشائك: عبارة عن قطع من الحديد أو الخشب لها عدة شعب، بحيث يبقى منها سن مرتفع كيفما وقعت على الأرض. تستعمل بطرحها حول المعسكرات لعرقلة تقدم خيل العدو ودوابه. وكان صلى الله عليه وآله وسلم أول من استعملها في حصار الطائف كما ذكره ابن سعد[44]، ثم استعمل بعد في معارك الفتوح.

ج- أما فيما يتعلق بالعدد في الجيش الإسلامي: فقد كانت بداية التصنيف للجيش تقليدية؛ فكان مؤلفا في العادة من رجالات القبائل النافرة للجهاد كل تحت رايته، وهي مقسمة إلى فرسان ورجالة، و الرجالة منها موزعة على أهل السيوف و الرماح و النشابة. ثم أخذت هذه الأصناف تزداد اتساعا وتنظيما إلى أن استكملت هيكلها فأصبحت مقسمة على عدة أصناف هي:

1-الصنوف البرية للجيش:

أ- الرجالة: وهم الجند المشاة، وهم الأصل في الجنود، وكانوا في أول الإسلام يعرضون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيقبلون إذا ما اظهروا قدرة جسدية على القتال و حمل السيف، وان قلت أعمارهم عن السن المطلوب وهو خمسة عشرة[45]. وقد كان النبي صلى الله عليه واله سلم يعرض غلمان الأنصار في كل عام، ليرى

مقدرتهم على القتال؛ فيلحقهم بالمقاتلة، وكان هذا يثبت بالقدرة البدنية فضلا عن السن. وقد قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمرة بن جندب بعد أن صرع غلاما كان يكبره[46]، ولم يكن الخلفاء يقتصرون في التجنيد على أهل الإيمان فقط بل استعانوا أيضا بالمنافقين، وقد قال عمر بن الخطاب في ذلك نستعين بقوة المنافقين وإثمهم عليهم[47]، وكان الجندي يبقى في غزوه إلى قفول الجيش، لم تكن لجنديته مدة مخصوصة حتى خرج عمر من الليل فسمع امرأة تنشد:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرّقني أن لا حبيب ألاعبه

فسأل عمر ابنته حفصة أم المؤمنين : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أو أربعة أشهر فقال عمر: لا احبس الجيش أكثر من هذا[48]. فجعل بذلك مدة الجندية ما بين ستة وأربعة أشهر.

ب- الخيالة: كانت الخيل ولازالت من اعز ما تملكه العرب، ولهذا لم تكن الفروسية بغريبة عنهم؛ فقد كانت أكثر أيامهم وغاراتهم جولات فرسان. واعتنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخيل واقتنى منها عددا واستعملها في جيوشه ومغازيه، حتى كانت معركة أحد معركة خياله فقط. وكذا فعل أصحابه من بعده فقد اعتنى عمر بخيول الجيش عناية كبيرة، حيث كان يراقب عن كثب تربيتها وتمرينها، ويقوم في سبيل ذلك بزيارات تفتيشية لحمى الخيل القريبة من المدينة. وكان عمرو بن العاص بدوره مهتما بها يتهدّد من لم يعتن بفرسه قائلا: من أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك[49].

أما استعمالها في المعارك و الجيوش؛ فلم يكن إلا عند القتال، إذ كانوا يركبون الإبل، يقودون خلفها الخيل لإراحتها فإذا قابلوا العدو ركبوها فقاتلوا عليها. وكانوا يكسونها التجافيف وهي دروعها، و السروج واخترعوا لها الركاب في سرجها، كان في أوله من خشب فحوله المهلب بن أبي صفرة إلى حديد. و كانت لخفتها في المعارك تستخدم في "الطلائع" أو "المجنبات" عكس استخدام الفرس و الروم لها، كانوا يجعلونها في القلب و الخطوط الخلفية من الجيش[50].

ج- النّشابة: وهم رماة السّهام، وقد اعتنى الصدر الأول بتدريبهم والحض على تعليمهم عناية كبيرة ويفضلونه على الركوب؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم "ارموا واركبوا وان ترموا أحب إلي من أن تركبوا"[51]. بل كانوا يرون تعلّم الرّمي ثم تركه من المعاصي؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلّم من تعلّم الرّمي ثم تركه فقد عصاني[52] .

فأمّا دورهم في المعارك؛ فقد كانوا يولون مهمّات تعبوية تليق بمهارتهم في الرّمي؛ فكانوا يكلّفون في حالات الدّفاع بمسك الممرات الإجبارية و الأماكن التعبوية المهمة، وأمّا في حالات الهجوم فكانت تسند إليهم مهمات التمهيد و المرافقة و الحماية و استثمار الظفر بمتابعة العدو الفار.

د- الدبابون: وهم عمال الدبابات يدخلون فيها ويدحرجونها نحو الأسوار، يرافقهم جنود رجالة يسيرون أمامهم بالجفان لحمايتهم، وبعض الفعلة الذين يسهلون تقدم الدبابة بطمر وعر الطريق وإصلاحه؛ فإذا وصلوا إلى السور أخذوا في نقبه بالآلات[53] .

هـ- الفعلة: وهم شبيه بجنود سلاح المهندسين، تعددت أعمالهم، من حفر خنادق، ونقب الأسوار، وتخريب الجسور، وبناء المناظر على رؤوس الجبال، و تسوية السبل، و الطرقات، وما أشبه ذلك.

و- المنجنيقيون: وهم القيّمون على خدمة المجانيق صيانة واستعمالا.

ز- العيّارون: وهم رماة الحجارة أو قطع الحديد والرّصاص من المقاليع و المخالي.

ح- النّفاطون: و هم المستعملون لآلات النفط.

ط- الكشّافة: وهم يقومون بمهام الاستطلاع.

ي- الأطباء و المضمدون و النقالون: كانت تقوم بمهام مداواة الجرحى في أوائل الإسلام جماعات من النساء، كن يشتركن في مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسلم[54]؛ فيضمّدون الجرحى ويعالجونهم وأحيانا يحملونهم إلى المدينة. ثم فطن الحجاج بن يوسف لأهمية وجود نقالين في الجيش لحمل الجرحى؛ فأمر بصنع محفاة لهذا الغرض، وأوعز لأطباء الجيش تدريب بعض الجنود على هذه المهمة[55].

وبقية الأصناف الأخرى مثل أصحاب الأقباض، ورجال الحرس الخاص، والقراء، والرواد، والوزعة، والسعاة.

2/ البحرية في الجيش:

على الرغم من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، كان يحض على غزو البحر لقوله: (غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها)[56]، إلا أن غزو البحر قد تأخر إلى حد ما، وذلك لتخوف الصّحابة منه لقلة خبرتهم به، وكان عمر بن الخطاب أكثرهم تهيبا لخوضه لقوله لا يسألني الله عن ركوب المسلمين البحر أبدا[57]؛ فنهى لذلك جيوشه عن خوضه، وقد فشلت الحملة البحرية التي قام بها عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي على بلاد فارس متجاهلا لأوامره. وكذا كان رفض عثمان بن عفان إلى أن أجاز لمعاوية بن أبي سفيان غزو قبرص بشرط ألاّ يكون الجند إلاّ من المتطوعة فقط؛ فكانت غزوة قبرص سنة 29هـ/ 649 م من أولى غزوات الإسلام البحرية، وتتابعت مغازي البحر بعد؛ فكانت أشهرها المعركة البحرية الكبرى ببحر الشام ضد حملة قسطنطين بن هرقل سنة 31هـ/ 651م، التي عرفت بمعركة ذات الصّواري وكان النصر فيها للمسلمين[58]. وازداد عدد الأسطول الإسلامي اطرادا من بعد، حتى بلغ عند سنة 60هـ حو 1700 قطعة بحرية. وكانت صناعة هذه القطع تختلف من موضع لآخر؛ فقد كانت سفن البحر الشامي أكبر و أحسن صناعة فيما يبدو من سفن البحر الهندي، و قد بنوها أولا على غرار السفن الرّومية ثم اخذوا في تطويرها، و بلغ طول الكبيرة منها أربعون مترا، و عرفوا أنواعا مختلفة منها البوص، والبارجة، والبطسة، والجلاسة، والحراقة، والسميرية....الخ .

تشكيلات الجيش و رتبه:

لم يكن للعرب في جاهليتهم جيشا على نحو ما نعرفه اليوم من تشكيلات و رتب عسكرية، بل كان كل سيد قبيلة قائدا لها في المغازي والمعارك؛ فإذا احتاج إلى من ينوب عنه في القيادة انتدب رجلا لذلك، و كانوا يسمونه "المنكب"، و يليه في الرتبة العريف، إذ كان المنكب يقود خمسة من العرفاء، كل منهم يرأس نفرا من الرجال من ثلاثة إلى عشرة. و لم يحدث النبي صلى الله عليه وآله و سلم فيما يبدو تغييرا على ذلك. وقد روي أنه صلى الله عليه وآله و سلم اتخذ عرفاء لكل جماعة، وقد ظهر دورهم في خبر عتقاء حنين من هوازن[59].

ويبدو أنهم قسّموا الجند في صدر الإسلام إلى عشرات و سلّموا كل عشرة رجال إلى عريف، وسلّموا قيادة العرفاء إلى أناس من أهل السابقة في الإسلام أو النفوذ أو الشجاعة. وكان النبي صلى الله عليه وآله و سلم يجعل على كل صنف من الجيش قائدا، وقد جعل يوم بدر قيس بن أبي صعصعة قائدا على المشاة (الساقة)[60].

ثم لما اتسعت الفتوح و تضخم الجيش جعلوا لرتبة العريف ثلاثة طبقات الأولى ممن يتولى عشرين جنديا والثانية ممن يتولى ثلاثين جنديا، والثالثة ممن يتولى أربعين جنديا. وكان يقود هؤلاء العرفاء قادة يقال لهم "أمراء الأسباع" يتولون تفريق العطاء في العرفاء الذين يفرّقونه على الجند.

ثم ازداد نظام الرتب في الجيش في الدولة الأموية منذ بدايتها؛ فكانت على النحو التالي:

ا.أمير الجيش يقود فوق عشرة ألاف مقاتل.

ب. خليفة الأمير وهو النائب عنه.

ج. أمراء التعبئة وهم أمراء الميمنة والميسرة والقلب والمقدمة والساقة. يقود كل منهم خمسة ألاف مقاتل.

د. خلفاء لأمراء التعبئة وهم نواب لأمراء التعبئة.

هـ. أمراء الكراديس يقود الواحد منهم كردوسا في حوالي ألف جندي.

و. القواد يقود الواحد منهم حوالي المائة جندي.

ز. أمراء الأعشار يقود الواحد منهم من عشرة إلى تسعين مقاتل.

ح. العرفاء يقود الواحد منهم عشرة جنود.

وبقي هذا التنظيم معمولا به إلى زمن المأمون العباسي (198–218هـ).

وكان هؤلاء الأمراء والجنود منضوون تحت تشكيلات مختلفة من الجيش، تختلف أساميها باختلاف تعدادها وقد ذكرت المصادر من ذلك:

ا.الرهط كان يتشكل من خمسة إلى عشرة مقاتلة.

ب.الحضيرة وهم النفر يغزى بهم يبلغون العشرة فما دونها.

ج.المقنب ومثله المنسر وهو ما كان به من الثلاثين إلى الأربعين مقاتلا.

د.الهيضلة وهم الجماعة يغزى بهم لم يبلغوا الكثرة.

هـ.الكتيبة وهم ما جمع فلم ينتشر.

و. الأرعن وهو الجيش الكثير الذي له مثل رعن الجبل.

ز.الخميس هو الجيش يكون أكثر من الكتيبة.

ح . العراجلة وهي الجماعة من الرجالة.

ط. السرية وهي الجماعة من المقاتلة التي تكون ما بين العشرين إلى الثلاثين فارسا.

كما نجد في أسماء العساكر:

ا.الجريدة وهي التي تجرد من الجيش لوجه من الوجوه ومثلها الفصيلة.

ب.السرية و تكون من الخمسين إلى الأربعمائة مقاتل.

ج. الكتيبة و تكون من الأربعمائة إلى الألف مقاتل.

د.الجيش و هو من الألف إلى أربعة آلاف مقاتل ومثله الفيلق والجحفل.

هـ.الخميس و هو ما يكون من أربعة الآلاف إلى اثني عشر ألفا.

و.العسكر و هو يجمعها كلها.

التدابير القتالية

لقد قامت التدابير القتالية في الجيوش على دراية كاملة بحال تلك الجيوش وحال عدوها، وقد أبرزت تلك التدابير مقدرة أمراء الجيوش على حسن التنظيم، وذكاء الترتيب، و كياسة النظرة، ويمكن لحظ ذلك بجلاء على ثلاث مستويات:

ا.مستوى التدابير الدفاعية العامة: و هي التدابير التي يقصد منها استكمال الأهبة لمجابهة العدو الغازي في أي وقت ودرئه عن مغبة التفكير في غزو بلاد المسلمين وقد قامت على أمور هي:

1.حفظ السّر: لقد انطبعت العرب منذ القديم على الكتمان وقد أكد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الخصلة فقال: "اقضوا حوائجكم بالكتمان"[62]. ولم تختص هذه الوصية بأمور الدنيا وعوائدها بل قد ظهر من

فعله صلى الله عليه وآله و سلم في الحرب ما يدل على أنه قد جعل من هذه القاعدة أساسا في حركة جيوشه؛ فكان إذا ما أراد غزوة ورّى بغيرها([63])، كما حدث في غزوة حنين، وكان يعمّي على أعدائه طريقه ووجهته ووجوده؛ فكان يكمن نهارا ويسير ليلا –كذا كانت تفعل سراياه – ويسلك الطرق المهجورة. وقد سار على هذا خلفاؤه من بعده وبالغوا في التحرز من اطلاع العدو على أحوالهم؛ فقد كتب أبو بكر الصديق إلىأحد عمّاله في خبر وفود العجم عليه قال: "و إذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك و أسبغ عليهم النفقة وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين"[(64)]. لقد كان هذا التحرز من أقوى الأسباب التي ساعدت على ظفر الجيوش الإسلامية لما كان يختلج من إبهام واستفهام في قلب عدوها حولها في عدتها و عددها....

2. وسائط الإشارة : و هو ما كان يستعمل في إيصال الأخبار والتعليمات والشارات بالفتوح بين مركز القيادة وبها خليفة المسلمين وقادة الجيوش المبثوثة هنا وهناك. وقد كانت في الصدر الأول تنقل تلك الكتب عن طريق الفرسان. ثم نظّم ديوان البريد في الدولة الأموية فأصبحت له طرق تتشعب من مركز الخلافة إلى أطراف الدولة، وقد بلغ ما أنفق على هذا الديوان أربعة آلاف ألف درهم وبلغت عدد سككه حوالي تسعمائة سكة([65]).

وكان العمال على الولايات يكتبون بكل صغيرة وكبيرة إلى مركز الدولة في بلاد الشام، خاصة وأن هذه الفترة عرفت الكثير من الثورات والحركات الاحتجاجية المناهضة، قادها ثوار علويون وخوارج.

و في زمن الحجاج بن يوسف أحدثت "المناظر" وهي قباب مرفوعة على رؤوس الجبال يقيم فيها النظارة و الدبادب ليلا نهارا، للتحرز من حركات جيوش (الأعداء) والإعلام بها، وذلك باستعمال النار فيها ليلا أو التدخين عليها نهارا؛ فكان الخبر ينتقل بذلك بسرعة بين تلك المناظر حتى يصل إلى مقصده. كما استعملوا عند الغياض المواصلات النهرية؛ فيجعلون الرسائل والكتب داخل قصبات محكمة الإغلاق ثم يدسّونها في باقة من حشيش وتلقى لتجري في النهر، واستعملوا أيضا في ذلك السّهام المربوطة عليها الكتب فتلقى إلى مواضعها.

3.تسليح الجيش: لقد اهتم النبي صلى الله عليه وآله و سلّم وخلفاؤه من بعده وملوك بني أمية بتسليح الجيوش ردعا للعدو وحفظا للأحواز وتقوية لجيوشهم الفاتحة، وقد حظت الآية الكريمة على ذلك فأمر الله تعالى بإعداد

القوة لإرهاب العدو في قوله تعالى: "و اعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم"[66]، و كان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يقول في هذه الآية " ألا إن القوة الرّمي".

ولم يكن اهتمامهم قاصرا على السلاح الخفيف (الفردي) بل السلاح الثقيل (الجماعي) أيضا، وكان أول ما استخدموه من آلة، المنجنيق، ثم تطور هذا الاهتمام مع الأيام حتى انشأ للسلاح ديوان خاص.

4.نظام الثغور: و هي تلك المواقع الحصينة والقلاع المنيعة الواقعة في حدود الدولة الإسلامية، والتي اتخذت كمسالك لدفع العدو وصد غاراته أو قواعد لانطلاق الغزوات، وكان أهمها تلك الثغور الواقعة على أطراف الدولة البيزنطية والتي عرفت ب"الثغور الرومية"، وكان منها أيضا "الثغور الهندية" و"الثغور الشامية".

كان لهذه الثغور أحكامها الخاصة؛ فقد كان على أهل الديوان المرابطة بها بالتناوب، وقد ذكر الواقدي أن عمر بن الخطاب كان يعقب بين الغزاة فيها فضلا عن أنه كان ينهى عن حمل الذرية إليها. واختلفت مدة البقاء في تلك الثغور؛ فيذكر أنه كان مقاتلة الكوفة في أيام الوليد بن عتبة يخرج منهم كل سنة أربعة ألاف مقاتل إلى ثغري قزوين و أذربيجان؛ فكان يحصل للواحد منهم غزوة كل أربعة سنوات وكان المتخلف منهم عن ثغره تناله العقوبة على اختلافهم فيها؛ فكان الرجل في أيام الراشدين تنزع عمامته ويقام في مسجد حيه و يشهر به فيقال: "هذا فلان قد اخل"[67].

5.الصوائف و الشواتي: وهي تلك الغارات الكبرى والصغرى التي كان يقوم بها عادة الخليفة أو أحد كبار رجال الدولة ضد أحواز العدو ومعاقله، والتي كانت تصل أحيانا إلى حاضرة العدو. وكان غرضها أولا عدم ترك فرض الجهاد الثابت على الإمام ولو مرة في السنة، ثم ملأ قلب العدو رعبا لتحطيم معنوياته وثنيه عن التفكير في الغارة على أحواز المسلمين؛ فلم تكن الغاية كما زعم أومان في كتابه "تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى" و إنما كانت من قبيل ما يسمى بالحرب الوقائية، وكمناورات موسمية للجيش من جهة أخرى. وكانت تتم هذه الغزوات على دفعتين متتاليتين، سميت الأولى بالصوائف لابتدائها في أشهر الصيف و تدوم إلى قدوم الشتاء، والثانية تسمى الشواتي لقيامها في الشتاء على مدى شهر واحد على الأكثر. وكانوا أحيانا يغزون صائفتين في العام الواحد، تدعيان الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى. و قد استمرت سياسة الصوائف متواصلة

طيلة مائتي عام من سنة 35هـ إلى سنة 235هـ، لم تنقطع إلا في فترة الخليفة عمر بن عبد العزيز، على أنها قلت كثيرا بعد وفاة المعتصم العباسي 227هـ، لتنقطع تقريبا منذ أوائل القرن الرابع الهجري.

ب- مستوى التحضير للقتال الهجومي:

كان التحضير للقتال الهجومي يمر بعدة تدابير لتهيئة الأحوال و استكمال العدة والعدد للتمكين والظفر وكان يمر على مراحل وهي:

1. حشد القوة (النّفير): لقد كان الأمر بالجهاد ملزما للمسلمين على تلبية دعوة داعيه، وكانت ظروف الدولة في العهد النبوي تلزم أن تكون فترات السلام القليلة فترات استعداد للحروب. وكان يكفي في حشد قوى المسلمين أن تغرس راية الجهاد أمام المسجد أو أن ينادي داعي الجهاد إليه حتى تلبي جموع المسلمين نداء النفير. وكان الخلفاء يأمرون الوعاظ في المنابر والرؤساء في الأحياء أن يبيّنوا عن أسباب الغزو وفضائله ويحثّوا المؤمنين على تلبية نداء النفير. كما كانوا يكتبون للقبائل النائية لتلبية نداء الجهاد كما كتب أبو بكر الصديق إلى أهل اليمن يستنفرهم لقتال الروم، ثم كان يقوم الأمراء والقادة بالتجميع و الترتيب ويبدأ المتطوعة في الازدلاف إلى معسكرات الجيش.

2. المسير للقتال: بانتهاء مرحلة النفير والحشد والإعداد المادي والمعنوي يأخذ الخليفة أو الأمير بتسيير قواده إلى وجهتهم بعد أن يزودهم بنصائحه الجامعة لأوامره في القتال وبعض آداب الحرب. وبعد استعراض الأمير لوحدات جيشه يأمر بالمسير على بركة الله وبتوفيقه؛ فينطلق الجيش تحت دقات الطبول وأهازيج الحداة في عدته الكاملة. وكانت الجيوش تجتاز في مسيرها عادة مرحلة كاملة في اليوم (حوالي 35كلم)، في سير منظم غالبا ما كان يفضل فيه المشاة سير النّسلان لخفته عليهم([68])؛ فإذا قربوا من مكامن العدو ساروا على نظام الخميس وهو قائم على تقسيم الجيش عن أخماس هي:

- القلب، وهو القسم الرئيس لأنه مقر القائد العام، به راية الجيش وموضعه في الوسط.
- الميمنة، وتكون مهمتها رد الغارات على الجناح الأيمن له.
- الميسرة، ومهمتها رد الغارات على الجناح الشمال له.

– المقدمة، وهي تسير أمام القلب، وتقوم بصد الهجمات القبلية واستطلاع الأرض بواسطة مفرزة الطلائع.

– الساقة، تسير خلف الجيش وتضم عناصر الشؤون الإدارية ومفرزة لحماية الأدبار يطلق عليها اسم الروعة.

3. حياة المعسكر: فإذا وصل الجيش إلى المكان المقصود يأمر الأمير بالنزول لتخطيط المعسكر وتحصينه. وكانت الطلائع قد حفرت قبل ذلك الخنادق حول المعسكر زيادة في التّحوط من الغارات، ثم تنصب الخيام في نظام معلوم، وتقام الشوارع، والأسواق، والميادين، وتوزع الأرزاق، وتوقد المطابخ، وتنصب القدور. وبعد العشاء تقام الصلاة (صلاة الخوف)، ثم يجلس الجميع في حلقات يستمعون الأقاصيص في الحروب والقصائد الحماسية، وينزوي بعضهم للصلاة و الدعاء.

وكانت تبثّ مفارز الرّصد والدوريات المتحركة حول المعسكر لحراسته من أي غارة أو بيات، كما يقسم الجنود إلى عدة نوبات بحيث يظل قسم منهم على أكمل أهبة في كل حال فوق ظهور خيلهم، فضلا على أفراد الحرس الداخلي الذين يستلمون الحراسة بالمناوبة.

4. معرفة أحوال العدو: فطن الخلفاء و أمراء الجيوش منذ العهد النبوي لما في معرفة أحوال العدو من أهمية في كسب المعارك؛ فها هو ذا النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يبعث عبد الله بن جحش مزودا إياه بكتاب آمرا له بفتحه بعد يومين وفيه: "إذا نظرت كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة و الطائف فترصد لنا عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم"[69]. بل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يجمع المعلومات الإستخبارية بنفسه كما فعل مع عبد الله الماسور يوم بدر([70]). وقد حرص أمراء الفتوح على مثل هذا؛ فهذا عمرو بن العاص يدخل حصنا روميا متنكرا في صفة رسول فقابل ارطبون قائد الروم، وعاد من استخباره بمعلومات وافرة عن نقاط ضعف حصنهم مما ساعده على فتحه من بعد([71]).

ولم يكتف هؤلاء الأمراء بهذا فقط، بل استعانوا بالطابور الخامس في جولات حروبهم، وقد استعان خالد بن الوليد في معركة اليرموك بأبي جعيد أحد رجالات حمص الذي انضم إلى صفوف الروم وبثّ الفرقة بينهم، بل وقام بإقناع قسم منهم باستخدام مخاضة عميقة المياه في انسحابهم كانت سبب مهلك أكثرهم. وكان الخلفاء شديدي الحرص على معرفة أوصاف بلاد العدو وأحوالهم قبل قيام المعارك لتوجيه جيوشهم على حسب تلك الأحوال، وكان عمر بن الخطاب يهتم بذلك وقد أمر قبل معركة القادسية سعد ابن أبي وقاص

بأن يصف له تلك المواضع قال:"واكتب إليّ أين بلغك حجمهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؛ فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها[72].

5. وضع الخطة: بالاستناد إلى أخبار فرق الاستطلاع و الجواسيس (العيون)، يقوم الأمير بوضع خطة المعركة، ليس قبل أن يدرس موضع القتال وأحواله مغتنما العوامل التالية:

ا- عامل المفاجأة: وكان هذا العامل أكثر ما يحرص عليه أمراء الجيوش الإسلامية ليوقعوا البلبلة في صفوف عدوهم، وقد ذكر في الأحكام السلطانية: "والرابع – أي من واجبات أمير الجيش- أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحواله حتى يخبرها؛ فيسلم من مكره ويلتمس الغرة في الهجوم"([73]). وكانت طريقة الكمين أحسن ما عملوا به هنا، يقسمون الجيش إلى قسمين يبدأ قسم بالقتال في المعركة، ويختبئ قسم آخر حتى يتعب العدو أو يوهمه بالانهزام ثم يكر عليه بقية الجيش.

ب- عامل السيطرة: وهو سيطرته في أوقات القتال على جنوده بمقدرته على إيصال أوامره إلى أدنى مستويات العسكر عن طريق التكبير (الصوت) أو هز الرّاية (الإشارة) أو الكتابة.

ج- عامل الخدعة: كان من شرائع الحرب المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم "الحرب خدعة"[74]. ومن وصايا المهلب بن أبي صفرة لبنيه قوله: "عليكم بالمكيدة فإنها أبلغ من النجدة"[75]. ومن مشاهير خدع المسلمين في فتوحاتهم ما قام به القعقاع بن عمرو لما جاء مددا في معركة القادسية في ألف مقاتل فأمر جنده بأن ينقسموا عشرة أقسام وأن يدخلوا المعركة بأكبر قدر من الصخب والتكبير وإثارة الغبار مع التعاقب في الوصول إلى ساحة القتال؛ فأوهم بذلك أهل فارس بتتابع الإمداد وأن عددهم كبير؛ فضعفوا وقويت روح المؤمنين فكان ذلك من أسباب النصر.

د- عامل الحذر: وقد أعانهم هذا العامل على الثبات وعدم الاغترار بالقوة والعدد؛ فهذا أبو بكر الصديق يوصي أحد قواده ويحضّه على الحذر: "سر على بركة الله فإذا دخلت بلاد العدو فكن بعيدا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة، واستظهر في الزاد وسر بالأدلاّء، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه، واحترس من البيات فان في العرب غرة" لأنهم كانوا ملتزمين كثيرا ماكانوا يضعون خطتين للمعركة تنفذ الثانية في حالة الهزيمة، ولهذا

أيضا كانوا حريصين على تأمين طريق انسحابهم؛ فغالبا ما كانوا يجعلون الصحراء من خلفهم كملجأ لهم عند اللزوم، لعلمهم بها وجهل عدوهم لها. وقد كان أمراء المسلمين حذرين من تعريض رجالهم للهلاك أو الفناء حتى كانوا يكرهون إعطاء القيادة لمن شهر عنه الشجاعة المفرطة و الإقدام الكبير؛ فقد نهى عمر بن الخطاب استعمال البرّاء بن مالك على جيش من جيوش المسلمين قال فانه "مهلكة من المهالك يقدم بهم" [76].

هـ- توزيع الواجبات: إذا انتهى الأمير من وضع خطة يقوم بتوزيع الواجبات على مرؤوسيه متأكدا لما عليهم فعله في المعركة، ويظهر هذا فيما قام به النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في غزوة الفتح، حيث قسّم قوّاته إلى أربع فرق، وحدّد لكلّ فرقة واجبا معينا تلبيه: فالفرقة الأولى وعليها الزبير بن العوام كان عليها دخول مكة شمالا، والفرقة الثانية وعليها خالد بن الوليد كان عليها دخولها من أسفلها، والفرقة الثالثة وهم جموع الأنصار وعليهم سعد بن عبادة كان عليهم دخولها من جنوبها الغربي، والفرقة الأخيرة وعليها عبيدة بن الجراح كان دخولها من أعلاها، ومن هنا تبدأ المعركة الفعلية حينما يعطى الأمير إشارة الزحف للقتال.

- المعركة وآدابها في العهود الأولى:

لقد كان العصر النبوي والرّاشدي عصر الفتوحات الإسلامية ومعارك الإسلام الكبرى ولهذا لم تكن معارك هذه المرحلة الطويلة نسبيا إلاّ معارك هجومية تخلّلتها بعض المعارك الدفاعية القليلة، ولأجل هذا كان تمرّس الجيوش الإسلامية على الهجوم أكثر من تمرّسها على غيره ولأجل هذا أيضا عرفت تطوّرا مطّردا في فنونها الحربية ونلمس ذلك في:

أ-أنظمة التعبئة:

كانت التعبئة تتم قبل قيام المعركة؛ فيوزّع فيها الأمير جيشه وينظمه وينظر في أحوال جنوده ويحدد مهامهم. وكانت هذه التعبئة تتم في أوقات مختلفة؛ فقد عبّأ النبي صلى الله عليه وآله وسلّم جيشه يوم بدر ليلا[77]، وكان أثناء ذلك يقوم بتقسيم الجيش وتعيين القادة والعرفاء، ومثله فعل سعد بن أبي وقاص يوم القادسية؛ "فقد قدر الناس وعبأهم بشراف وأمّر أمراء الأجناد وعرّف العرفاء؛ فعرّف على كل عشرة رجلا، كما كان العرفاء زمن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأمّر على الرّايات رجالا من أهل السّابقة، وعشّر

الناس، وأمّر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل في الإسلام، وولّى الحروب رجاله؛ فولّى على مقدّماتها ومجنّباتها وساقتها ومجرّداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل إلاّ على تعبئة [78].

فإذا كملت التعبئة سار الجيش إلى المعركة للقتال، ولقد تطوّرت أساليب القتال الإسلامية تباعا، وباعتبار العوامل المؤثرة في الجيش من عدة وعدد، وطبيعة ساحة القتال وأحوال العدو، على أنه قد انتقل على الترتيب من نظام (الكر و الفر) إلى نظام (الصف) ثمّ نظام (الكراديس) ونظام (الانفتحات).

– نظام الكرّ والفر: وكان يتم بدخول الجيش المعركة حاملا على العدو فإذا انهزم أمامهم طاردوه وإلاّ كروا إلى الخلف فأعادوا تنظيم صفوفهم، ولمّ شملهم ثم عاودوا الكر عليه ثانية، ويعيدون ذلك إلى أن يكتب لهم النصر. وقد كان هذا النظام معمولا به في حروب العرب الجاهلية، وكانوا يستعملون فيه طريقة اتخاذ (المجبوذة) ليمنعوا أنفسهم الهرب من ساحة القتال، وذلك بأن يتركوا خلفهم إبلهم وظعائنهم ليعودوا إليها عند كل كرة؛ فتلهب حماستهم فيعيدون الكر على العدو، وعرّف هذا النظام ابن خلدون ب "ضرب المصاف"([79]).

–نظام الصف: عمل بهذا النظام الجيش النبوي منذ وقعة بدر، وبقي العمل به إلى أواسط العهد الراشدي. فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يأمر جنده بالاجتماع، أو في صفين أو ثلاثة كصفوف الصلاة. ويجعل في الصف الأول حاملي الرماح لصد هجمات الفرسان، ويليهم حاملي السيوف والسهام قي الصفين الآخرين، ويقف الفرسان على ميمنة الصف وميسرته، فإذا التقى الجمعان بعد عدد من المبارزات الفردية، زحفت الصفوف على بعضها بلا كر ولا فر، ولهذا سمي النظام أيضا بنظام الزحف. وبتضخم الجيوش صاروا يجعلون صفوفهم تختلف عددا باختلاف سلاحها على أنهم راعوا إبقاء الدرّاعين أمام الحاسرين والتمسك بعادة اتخاذ المجبوذة.

واختلفت أشكال هذه الصفوف فقد ذكر الهرثمي صاحب مختصر في سياسة الحروب ثلاثة أشكال لها هي:

–الصف المستوي: ويكون فيه الجناحان و القلب على خط مستقيم، وتبقى الساقة والمصاف في الخلف، مما يجعله يشبه التشكيلة الحديثة على شكل T.

-الصف الهلالي: وهو يشبه الهلال أو الحرف ب فيكون القلب فيه متأخرا عن الميمنة والميسرة.

-الصف المعطوف: وهو الصف الخارج القلب الداخل الجناحين يكون وراءه الساقة والمصاف.

3. نظام الكراديس: بإزدياد عدد الجند في الجيوش أثناء الفتوح مع ازدياد صعوبة السيطرة عليها حسب نظام الصفوف، رأى خالد بن الوليد ضرورة تغيير نظامها هذا؛ فلما التقى بجيوش الروم ألفاهم يتبعون نظام كورتيس، الذي يتم فيه تقسيم الجيش إلى عدة تشكيلات؛ فرأى أن يبني على منواله؛ فقام بتقسيم جيشه الذي كان مؤلفا من أربعين ألف مقاتل إلى أربعين كتلة تحت كل منها ألف مقاتل تسمى الواحدة بكردوس تحريفا من الكلمة اليونانية (كرنوس). وجعل على كل منها قائدا من قواد القبائل؛ فكان كل كردوس يتألف من قبيلة واحدة، وقسم كل كردوس إلى وحدات صغيرة ورغبة منه في السيطرة عليها، جمعها كلها إلى بعضها على حسب نظام الخميس جاعلا كل عشرة منها في تعبئة واحدة.

لقد كان هذا التنظيم الجديد قفزة نوعية في الفن الحربي العربي، وقد جلب به خالد بن الوليد النصر المتوالي على أعدائه، وخلّد ذكره كأحد أكبر العسكريين في التاريخ الإسلامي، لكن مع هذا بقي نظام الصّف معمولا به إلى سنة 128هـ /745م، حيث استغني عنه نهائيا بنظام الكراديس.

4. تعبئة الوحدات الصغرى: تختلف تعبئة الوحدات الصغرى في طريقة القتال عن الجيوش الكبيرة لاختلاف طبائعها، وقد ذكر القاضي احمد بن محمد الحموي في النفحات (المسكية في صناعة الفروسية) بعض الأشكال القتالية لهذه الوحدات:

ا. تشكيلة الزمرة، وهي تتألف من خمسة نفر، وتأتي على شكل مثلث القاعدة إلى الأمام.

ب. تشكيلة الجماعة، وهي تتألف من تسعة رجال على شكل مثلث الرأس إلى الأمام.

ج. تشكيلة الفصيلة، وهي تتألف من حوالي 20 مقاتلا على شكل شبه منحرف القاعدة الكبرى إلى الأمام. وهناك تشكيلات أخرى على قدر عدد المقاتلة في السرية([80]).

5- تعاون مختلف صفوف الجيش: كان ترتيب صفوف الجيش أثناء التعبئة خاضعا إلى طبيعة الجيش نفسه، واختلاف عدته و عدده وطبيعة العدو، فضلا على أحوال ساحة المعركة واختلاف رؤية أمير الجيش واجتهاده. ولكن في الجملة كان المشاة وقسما من النبالة يشكلون قلب الجيش الرئيسي، في حين

كان الخيالة وقسم آخر من النبالة يشكلان الميمنة والميسرة. وكان احتياط الجيش مشكلا من جميع صفوفه، وتبقى الشؤون الإدارية في المصاف تحميها بعض فرق النبالة، أما فيما يخص تعاون هذه الصفوف وأداؤها في المعركة فكان يختلف على حسب طبيعة السلاح لديها.

أ- دور النبالة، لقد كان دورهم من أهم الأدوار، وكان حاسما في كسب الكثير من المعارك الفاصلة، ولقد أدخل المسلمون مبدأ السّيطرة على الرمي أثناء المعركة، وذلك بتنسيق قوة الرمي مع حركات القوى الأخرى، وبتحديد الأهداف للنبالة ثم الإيعاز بالرمي عليها حسب الخطة الموضوعة للمعركة.

ب- دور الخيالة، كان لهم دور كبير في الجيوش، وكاد بعضها أن يكون مؤلفا منها حصرا كما في معركة اليرموك و القادسية، وكانت مواضعها غالبا في الأجنحة أو المقدمات تقوم بواجبات خمس: الاستطلاع والرّيادة للجيش، ومهاجمة خيالة العدو، وإبعادها عن ساحة القتال، ومنعها من تطويق القوات، فضلا عن مهاجمة بقية صنوف جيش العدو، من مشاة ونبالة وأيضا تطويق القوات المعادية، وفي النهاية مطاردة العدو أثناء فراره وهزيمته، ويكون هجوم الخيالة في غالب الأحوال مرفوقا برمي كثيف من النبالة لتسهيل توغلهم وشغل العدو عنهم.

ج.دور المشاة، وهم يشكلون في الجيوش قوة الصّدمة فيها، لذا شكلوا القوة الرئيسية في قلبه، ولاختلاف تسليحهم كانوا يقسمون إلى عدة صنوف، كل صنف منها يحمل سلاحا معينا. ومن مخالفتهم لجيوش الأمم الأخرى أنهم كانوا يجعلون في مقدمة صفوف الجيش المشاة المدربين و الشجعان منهم و المسلحين تسليحا قويا.

د.دور الاحتياط، من مشهور كلام العرب الحربي قولهم (إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحدا مددا)؛ فقد عرف العرب قديما أهمية وجود جند احتياطي للمعركة، لذا كانوا كثيرا ما يجعلون ثلث الجيش منه، وذلك أن عقيدتهم الحربية كانت قائمة على أن المعركة عبارة عن عدد من الصدمات المتلاحقة، التي ينبغي أن توجه إلى القوة الرئيسية في جيش العدو، كلما فشلت صدمة تبعتها الأخرى، ولأجل هذا دامت معركة القادسية وكذا اليرموك ثلاثة أيام بلياليها، فكان للاحتياط في ذلك دوره الهام.

6- شريعة وآداب الجيش:

تشكل شريعة الحرب وآدابها في الفكر العسكري الإسلامي مادة ضخمة في الأدبيات الدينية الإسلامية، وفي الجملة مستمدة من أصول ثلاث: الكتاب والسّنة وأقوال الصّحابة وأفعالهم؛ فلقد مثّلت الآيات القرآنية دستور الإسلام الحربي، كما مثّلت الأحاديث النبوية قانون الإسلام الحربي، وشكّل عليها ما يمكن تسميته ب "شريعة الحرب عند المسلمين" ومثلت في جانب آخر التدابير الراشدية، وعلى الخصوص منها التدابير العمرية — من وصايا وأوامر وأفعال آداب الحرب عند المسلمين، ويمكننا أن نلمس ضوابط هذه الشريعة والآداب على مستويات خمس تمثل مأمورات ومحظورات هذه الشريعة:

1- مستوى أسباب الحرب: قامت عقيدة الحرب في صدر الإسلام على هدف رئيس تمثل في نشر الرسالة الإسلامية في ربوع الدنيا بالسيف، ثم لحقتها بعدة أهداف أخرى منها رد العدوان والدفاع عن حوزة المسلمين، وتأديب ناكثي العهد من مرتدين وغيرهم، ودرء الفتنة التي يدبرها أعداء الدّين، ولقد جسّد الهدف الأول، كل من الحروب النبوية وحركة الفتوحات الإسلامية، وجسّد الهدف الثاني حركات الصّوائف و الشّواتي، وجسّد الهدف الثالث حروب الرّدة، وجسّد الهدف الأخير حرب علي بن أبي طالب رضي الله عنه للبغاة و حروب الخوارج بعد.

2. مستوى إعلان الحرب: ويأتي هذا الإعلان وفق ضوابط وتراتيب توفيقية من الله تعالى، قائمة على مراحل، الأول منها الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإقرار ببيعته نبيه صلى الله عليه وآله وسلّم بدخول الإسلام، الثاني منها إذا ما رفض الأول إعطاء الجزية عن يد وهو صاغر، الثالث منها إذا رفض الثاني القتال نبذ على سواء، هذا هو الأصل في إعلان الحرب، وقد جاءت فروع لهذه الأصول الثلاثة مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه وآداب صحابته، منها البراءة من يلي المسلمين من الكفار، قبول شروط العدو إذا ما نزل على حكم المسلمين، ترك الدعوة قبل القتال. إذا كان العدو على علم بها ترك الغدر في إعلان القتال....الخ

3.مستوى معاملة الجندي الإسلامي: كانت المعاملة داخل الجيش الإسلامي بين أصنافه ورجاله من أهم ما حددت أصوله، وهي قائمة في الحقيقة على طاعة الأمير فيما اجتهد فيه من أمور الحرب، ومعصيته فيما عصى فيه الله([81])، القتال تحت راية القبيلة([82])، عدم التجمير بالغزو([83])، الاحتياط على جند المسلمين، وعدم إهلاكهم([84]). ويندرج تحت هذا أحكام فرعية أخرى كثيرة.

4.مستوى معاملة العدو: ولعلّ هذا المستوى الأكثر ضبطا في شريعة الحرب لما تعمّ به البلوى، ولما فيه من تجاوزات قد تحدث أثناء القتال وبعده، وقد ضبطت شريعة الحرب هذه المعاملة قبل القتال وأثناءه وبعده، ومن مبادئها الرئيسية قصر الحرب على رجال العدو دون غيرهم، وترك قتال من لا قتال فيه من الرهبان والشيخ العاتي والنساء والولدان والعسفاء والوصفاء والفلاحين والتجار([85])، منع النصب والغلول، ترك التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار ابتداء وانتقاما([86])، ترك قتل من أخرج للقتال مكرها([87])، ترك التعرض للعدو صاحب الأمان، وإن كان المؤمن له عبدا من عبيد المسلمين، ترك حمل رؤوس القتلى إلى الأمير([88])، الإحسان إلى الأسرى من رجال العدو، من وصية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) لعسكره:

"لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم عليهم؛ فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا، ولا تصيبوا معورا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهينوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم؛ فإنّهن لمشركات، وإن كان الرجل لياول المرأة في الجاهلية بالفهر أوالهراوة فيعير بها عقبه من بعده".

ومع هذا كانوا يبيحون أمورا أخرى أثناء القتال فيها شدة على العدو كالإجهاز على جرحى العدو في المعركة([89])، وقتل بعض الأسرى خاصة ممن كان شديد العداوة للمسلمين، ضرب الحصار وتجويع العدو وقطع الميرة عنه وإفساد أرضه، وكل ما كان فيه نكاية به وإضعافا له.

ومستوى معاملة العدو هذا يدخل من باب أحكام القتال، وهو باب عريض جدا واختلفت فيه الأحكام أحيانا من زمن لآخر، على أنّ الذي لا شك فيه أن آداب القتال العامة كانت خفت زمن الدولة الأموية، حتى كان الكثير ممن بقي من الصحابة ينهى عن مخالفتها([90]).

5.مستوى قسمة الغنائم: جاءت ضوابط قسمة الغنائم مفصلة في سورة الأنفال، وقد حدّد النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم قولا وفعلا بعض ضوابطها الفرعية وهي في الجملة نوعان، أموال وأراضي، فأما الأراضي فكانت تقسم بين الفاتحين في أول الإسلام إلى أن ضرب عليها عمر الخراج اجتهادا منه للأمة وعن طيب خاطرها، وأما الأموال فكانت تخمس أربعة أخماس لمن اشترك في المعركة بوجه من الوجوه وخمس لبيت المال، وخمس لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حسب القرآن الكريم سورة الأنفال :"وأعلموا أنّما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه وللرّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..." الآية 41.

هذا فيما اجيفت عليه الخيل وأما الفيء مما لم توجف عليه الخيل أو ما حيز بغير قتال فكان كله في بيت المال تحت تصرف الخليفة.

وفي الجملة كانت شريعة الحرب عند المسلمين مزيجا من أحكام سماوية نبوية وآداب راشدية صحابية انطبعت بصفتين أساسيتين، الشدة عند النزال والرحمة عند الظفر؛ فخالفت بذلك جملة شرائع الحرب البشرية الأخرى، فهي قامت على طاعة الله والأخرى قائمة عل طاعة البشر وهي وان اعتراها في بعض الأزمنة التّرك و المخالفة إلاّ أنها تبقى أفضل ما خلفته شرائع القتال من أخلاق حربية وآداب قتالية إلى اليوم.

هوامش البحث:

1. ابن جماعة، بدر الدين محمد ابن ابراهيم. مستند الأجناد في آلات الجهاد. تحقيق أسامة النقشبندي. بغداد 1983م، ص 38.
2. هندي احسان، الجيش العربي في عصر الفتوحات (د.م) 1973م، ص 10
3. النبراوي فتيحة عبد الفتاح، تاريخ النظم و الحضارة الإسلامية، دار الفكر،1997 ، ص 283
4. هندي المرجع السابق، صص 11-13
5. الدرة محمد، تاريخ العرب العسكري، دار الكتاب العربي، 1964، ص235
6. النبراوي، المرجع السابق ص292
7. الدرة، المرجع السابق، نفس الصفحة.
8. خماش نجدة الادارة في العصر الاموي، دار الفكر، 1980 ، ص263
9. خماش المرجع السابق ص 257
10. المتقي الهندي ، منتخب كنز العمال، في سنن الأقوال والأفعال، دار الفكر، بهامش مسند أحمد بن حنبل، الجزء الأول،ص 188.، صفوة أحمد زكي: جمهرة خطب العرب، بيروت، (د.ت)، الجزء الثاني، ص 293.
11. كتب عمر بن عبد العزيز لقادة جنده :"ان كل عبد قاتل ليس معه مولاه فاضرب له سهمه سهم الحر فضرب لغلام لنا كما ضرب للحر"، سنن سعيد بن منصور، تحقيق سعد ابن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الرياض 1414هـ، الجزء 2 ،ص 329 ، وأيضا: ابن أبي شيبة الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشاد، الرياض ، 1409 هـ ، الجزء 6 ، ص 518.
12. هندي المرجع السابق صص 24-27
13. مسلم بن الحجاج القشيري صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، الجزء 3 ص 466 ، وأيضا: احمد بن حنبل ، مسند احمد بن حنبل ، الجزء 2 ،ص 244

14. الخزاعي ابو الحسن علي بن محمود، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، 1405هـ، ص246

15. احمد بن حنبل المسند، الجزء 1، ص 222–346 ، وأيضا: مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، الجزء 2 ، ص 978

16. الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق سمير مصطفى، بيروت 2000م، صص 220–222

17. هندي المرجع السابق ص 34–35

18. مسلم بن الحجاج المصدر السابق الجزء 2 ص 112–113

19. ابن خزيمة النيسابوري، صحيح ابن خزيمة، تحقيق مصطفى الأعظمي ، المكتبة الإسلامية، بيروت 1970م، الجزء 4، ص68 ، وأيضا: الحاكم، المصدر السابق، الجزء 1 ، ص 563، رقم 1471

20. البخاري، صحيح البخاري، تحقيق ديب البغا، بيروت ،1987م ، الجزء 4 ، ص 1512

21. البيهقي أبو بكر احمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكة المكرمة ، الجزء 3 ، ص 268

22. هندي المرجع السابق صص 40–46

23. النسائي أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان ، دار الكتب العلمية ، 1991م ، الجزء 5 ص181 رقم 8606

24. ابو داود سلمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر ، الجزء 3 ، ص 32، رقم 2593

25. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم و الملوك، دار الكتب العلمية بيروت، ، الجزء 2 ص298

26. ابن جماعة المرجع السابق ص74

27. نفس المصدر، صص 75–76

28. ابن سعد الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، ، الجزء 2، ص 41

29. النسائي المصدر السابق الجزء5 ص 270 رقم 8861

30. هندي،المرجع السابق، ص 50

31. ابن عساكر ابو القاسم على بن الحسن الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محي الدين العمري، دار الفكر،1998م، الجزء 39 ص 456

32. الحاكم،المصدر السابق، الجزء 2،ص 117، رقم 2511

33. الكلبي أبومنذر هشام، جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن،بيروت 2004م، ص186

34. هندي،المرجع السابق، ص75

35. نفس المرجع، ص 57

36. نفسه،صص 68-69

37. احمد بن حنبل الشيباني، مسائل الإمام احمد، تحقيق فضل الرحمن دين محمد، الدار العلمية دلهي،1988 ، ص 339

38. ابن سعد،المصدر السابق،ج1، ص 312 ، الطبري،المصدر السابق، ج2، ص 171

39. الحلبي علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعارف بيروت، ، الجزء 3، ص 80

40. البيهقي المصدر السابق الجزء 9 ص 84

41. ابن الأثير محمد بن محمد بن الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، تحقيق أبو الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية،1995م الجزء 4، ص 250

42. ابن عساكر،المصدر السابق، ج32، ص119

43. هندي،المرجع السابق،صص 136-138

44. ابن سعد،المصدر السابق، ج2، ص158

45. سعيد بن منصور، المصدر السابق،ج2، ص219

46. البيهقي،المصدر السابق، ج9، ص29

47. أحمد بن حنبل،المسند، ج1، ص41

48. البيهقي، المصدر السابق، ج9، ص29

49. أحمد بن حنبل،المسند، ج4، ص144

50. مسلم بن الحجاج، مصدر سابق، ج2، ص161

51. هندي،المرجع السابق، ص153

52. أحمد بن حنبل،المسند،ج6، ص371

53. ابن سعد، المصدر السابق، ج8،ص252،مسند أحمد بن حنبل،ج6، ص371

54. أبوداود، مصدر سابق، ج3، صص74-75، رقم 2729

55. الحاكم، المصدر السابق، ج2، ص155، رقم 2634

56. ابن سعد، المصدر السابق، ج3، ص284

57. الطبري، المصدر السابق، ج2، ص498

58. نفس المصدر،ص619

59. النسائي، المصدر السابق، ج5، ص276، رقم8876

60. الطبري،المصدر السابق، ج2، ص385

61. هندي، المرجع السابق، صص 177-180

62. الطبراني ابو القاسم سليمان بن احمد، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد الحميد ، الموصل، 1983، الجزء 20 ص 94

63 . البخاري المصدر السابق الجزء 3 ص 1078

64. هندي المرجع السابق ص 200

65. المتقي الهندي المرجع السابق الجزء 2 ص 293

66. سورة الانفال الاية 60

67. خماش المرجع السابق ص 268

68. النّسلان: هو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ، الحاكم المصدر السابق الجزء 2 ص 111رقم 2491

69. ابن هشام المصدر السابق الجزء 3 ص 147

70. ابن سعد المصدر السابق الجزء 2 ص 15 و ايضا ابن هشام المصدر السابق الجزء 3، ص 164

71. الطبري تاريخ الامم، الجزء 2 ص 447

72. الطبري المرجع السابق، ص387

73- الماوردي، المصدر السابق، ص55

74. ابن حنبل مسند، احمد بن حنبل الجزء 3 ص297

75. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن حجر، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوى ، بيروت، 1968، ج1، ص 308

76. الحاكم، المصدر السابق، الجزء3، ص330

77. الترمذي، المصدر السابق، الجزء3، ص113، رقم1728

78. الطبري ، المصدر السابق، الجزء 2 ص385

79. ابن خلدون عبد الرحمن،، المقدمة ، دار العلم بيروت، 1984، ص272

80.هندي، المرجع السابق، ص242

81- البيهقي، المصدر السابق، الجزء 9 ،ص 115

82.الحاكم، المصدر السابق الجزء، ص115، رقم 2508

83.ابن حنبل ، المسند ، الجزء 2، ص11

84.وقد أوصى الرسول صلىّ الله عليه وآله وسلّم، الرفق بالجند أثناء السير للغزوات، بحيث يقدر عليهم أضعفهم وتحفظ به قوة أقوالهم، ولا يجدّ السير فيهلك الضعيف ويستفرغ جلد القوي، وقد قال عليه الصلاة والسلام "هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق؛ فإن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وشرّ السير الحقحقة". البيهقي في السنن الكبرى، الجزء3، صص 18-19، والحقحقة هي السير المتعب للظهر.

85.البيهقي المصدر السابق الجزء9 ص 91

86.ابن حنبل، المسند ، الجزء2، ص307وج3، ص494

87.ابن سعد المصدر السابق، الجزء4، ص10

88.وقد حمل رأس بطريق الشام "يناق" إلى أبي بكر؛ فكتب إليهم ينهاهم عن ذلك، وقال: " لا يحمل رأس إليّ فإنما يكفي الكتاب والخبر" النسائي المصدر السابق، الجزء5، ص204، رقم8673

89. كما أجهز الزبير بن العوام على الجرحى يوم اليرموك، البيهقي، المصدر السابق، ج9، ص93

90. ابن حنبل، المسند، الجزء4، ص111.